

الشيخ عبد العزيز الثعالبي مؤرخا

بقلم: حمادي الساطي*

يتمتع الثعالبي بشخصية متعددة الجوانب: فهو زعيم سياسي، ومصلح اجتماعي وديني ومفكر وكاتب وصحافي وخطيب ورحالة.

وستتناول بالدرس في هذه الكلمة منهجية الثعالبي في دراسة التاريخ.

1 - فقد كانت الدراسات التاريخية من بين المواضيع التي استأثرت باهتمام الشيخ منذ شبابه البكر. فقد أخبرنا في سيرته الذاتية التي حررها في حدود سنة 1920 أنه كَوْن أثناء إقامته الاولى بمصر (في آخر القرن الماضي ومطلع هذا القرن) لجنة لتأليف تاريخ الاسلام العام. وهي تضم عددا من المؤرخين والاساتذة والمفكرين ورجال السياسة المصريين من بينهم زعيم الحرب الوطني محمد فريد، وتوقف عمل هذه اللجنة اثر عودة الثعالبي الى وطنه في سنة 1902.

* باحث تونسي.

2 - واثّر رجوعه من المنفى قبيل اندلاع الحرب العالمية الاولى شرع في تأليف كتاب تاريخ شمال افريقيا. ولكنه لم يتمكن من إتمامه حيث توقف عند نهاية الدولة الأغلبية.

وقد تأسف لذلك في سيرته الذاتية قائلا بالخصوص: «وهذا عيب معظم المفكرين، فانهم يموتون دون أن يتركوا أثارا تعرّف بهم بعد وفاتهم».

وقد صدر هذا الكتاب كما تركه مؤلفه في سنة 1986 عن دار الغرب الاسلامي..

3 - وشرع في سنة 1921 في نشر دراسته القيّمة، «سقوط الدولة الأموية» تباعا في مجلة الفجر التي أصدرها الحزب الحر الدستوري التونسي في شهر أوت 1920. وقد ظهرت هذه الدراسة في احدى عشرة حلقة، ونشرت الحلقة الاولى فيفري 1921 (وهو مازال في السجن) لذلك لم يذكر اسم المؤلف، والحلقة الاخيرة في العدد الأخير الصادر في شهر جويلية 1922 والذي لم يوزّع. وستصدر هذه الدراسة قريبا بحول الله عن دار الغرب الاسلامي في كتاب مستقل بذاته.

4 - وعندما استقر الثعالبي في العراق اثر هجرته من تونس في سنة 1923، نشر في مجلة الجامعة مجموعة من المحاضرات التي القاها في جامعة آل البيت. وقد جمعت فيما بعد ونشرت في سنة 1985 في كتاب يحمل عنوان: «محاضرات في تاريخ المذاهب والاديان».

5 - واثّر رجوع الشيخ الى تونس في سنة 1937 أصدر في سنة 1938 الجزء الاول من كتاب في السير النبوية اختار له عنوان «معجز محمد رسول الله ﷺ».

وقد أعيد في سنة 1934 نشر هذا الكتاب الذي حققه الاستاذ محمد اليعلاوي.

ثم عثر على الجزء الثاني من الكتاب في مخلفات الثعالبي التي يحتفظ بها د. أحمد بن ميلاد وأصدرته دار الغرب الاسلامي في سنة 1989 بتحقيق المتحدث اليكم. أما بقية الأجزاء فهي مازالت مفقودة.

6 - وفي سنة 1939 نشر الثعالبي تباعا في جريدة الارادة لسان حال اللجنة التنفيذية اعتبارا من العدد الصادر في 9 مارس 1939 سلسلة من المقالات تحت عنوان: خلاصة من التاريخ القديم. وقد تفضل الاستاذ جلول الجريبي مشكورا بجمع هذه المقالات ونشرها في سنة 1986 بعنوان: «مقالات في التاريخ القديم».

ومن خلال دراسة هذه الكتب الخمسة - في انتظار صدور الكتب الأخرى التي مازالت مخطوطة وبالخصوص تاريخ الهند - يمكننا استنتاج الملاحظات التالية:

1 - لقد حاول الثعالبي في دراساته التاريخية اتباع منهجا حديثا يتمثل أولا وبالذات في إعمال الفكر وتحليل الاسباب والمسببات والاعتماد على الادلة والقرائن الثابتة لأنه من الصعب - حسب قوله - «التعويل في تحقيق المباحث العلمية التي ينبغي فيها النقد والتمحيص» على النقول التي ليس لها مورد صحيح».

2 - إلا أنه والحق يقال لم يمثل دوما وأبدا لهذا المنهج. فنراه مثلا يكثر من النقول في كتبه التاريخية ويستشهد بفقرات مطولة مأخوذة من كتب التاريخ القديمة وبالخصوص

تاريخ الطبري دون زيادة ولا نقصان. فلولا تعاليقه القيمة التي تتخلل سرد الوقائع والاحداث السياسية والعسكرية لكانت دراساته التاريخية لا قيمة لها. كما نلاحظ أن كتاب «معجز محمد» - باستثناء مقدمته التي امتازت بلغتها الراقية واسلوبها البديع وأفكارها المبتكرة - لا يختلف كثيرا عن كتب السيرة السابقة فهو يكاد يكون نسخة طبق الأصل من سيرة ابن هشام. وذلك رغم ما أعرب في المقدمة بصريح العبارة عن رغبته في تجديد طريقة كتابة السيرة النبوية حتى تكون ملائمة لروح العصر. إذ أن الرسالة المحمدية - على حدّ تعبيره - «يجب أن تفهم في كل عصر بما يناسبه ويلائم طريقة التفكير فيه».

3 - ونلاحظ من ناحية أخرى أن المؤلف كثيرا ما يطغى عليه تفكيره السياسي حتى يبعده عن الموضوعية التاريخية. وعذره في ذلك أنه ينظر الى الاحداث التاريخية نظرة الزعيم السياسي الذي سخر حياته لكفاح الاستعمار والنضال من أجل الجامعة الاسلامية والوحدة العربية. ويتجلى ذلك بالخصوص من خلال موقفه المناهض صراحة للشيعية والعباسيين. فقد حمل في كتابه تاريخ شمال افريقيا حملة شعواء على جميع الفرق الشيعية دون أي تمييز متهما إياها بالكفر والالحاد وبث بذور الشقاق في صفوف المسلمين والعمل على تقويض الوحدة الإسلامية. وفسّر جميع الانتفاضات والثورات التي شهدتها العالم الاسلامي بسبب انتشار الفرق الباطنية. ولعلّ تحامله على تلك الفرق نابع من عقيدة راسخة في ذهنه وهي أن الإسلام الصحيح هو وحده الكفيل بتوحيد الأمة الاسلامية وضمان عزّتها ومناعتها.

كما تهجّم على العباسيين متهما إياهم بالعمل «على تفكيك الوحدة الاسلامية. وقد علق على قيام الدولة العباسية بقوله: «وهذا ما يدعو المؤرخ العربي الى اتهام الانقلاب العباسي بأنه كان مؤامرة كيدية ضدّ العرب، لانتزاع سيادة الحكم من أيديهم وتسليمها الى الأعاجم. وهو ما كان يحاذره المروانيون ووقع فيه العباسيون اعتباطا، فهدّوا كيان قومهم بدل أن يشدّوه ويشيدوا بذكره».

وبالعكس من ذلك لم يخف تعاطفه مع الأمويين في كتابه «سقوط الدولة الأموية» الذي كان من الأصح أن يحمل عنوان «دفاعا عن الدولة الأموية» فقد دافع المؤلف بكل ما أوتي من قوّة عن الأمويين وبرّر مواقفهم رغم اعترافه بانهم ارتكبوا «بعض الهفوات السياسية» واتهم مخالفينهم بالأنانية وحبّ الذات وبأنهم «كانوا طلاب تراث وملك لا طلاب إصلاح. وما القناع الذي وضعوه على وجوههم إلا لإخفاء مقاصدهم عن الناس».

وأما الأمويّون فيقول عنهم إنهم «أنشأوا على أنقاض حكومة الخلفاء الراشدين هيئة أكثر تشكّلا بالطبيعة البشرية وأوسع قابلية للتطوّر. فانتقلت بالمسلمين من طور البداوة والسذاجة الى طور الحضارة والانتظام ثم يضيف قائلا:

وجماع القول ان الامويين وجدوا على رأس انقلاب مهول لم يحسن المخالفون فهمه ولو فهموه لاستفادوا منه كثيرا وسايروا التحوّل وتركوا هذه الحكومة النجيبة تتمّ برنامجها المعلوم.

ولكنهم لما واثتهم الايام وأسرعت اليهم الدهماء وتقبّضوا

على الخلافة لم يعودوا بها الى حكم الخلفاء الراشدين بل تجاوزوا بها من الارستقراطية العربية الى الارستقراطية الآرية فظهرت سرائرهم للناس.

إلا أن المؤلف يعترف مع ذلك بما ارتكبه الخلفاء الأمويون من «هفوات سياسية» على حدّ تعبيره لاسيما منها سوء معاملة المسلمين الاعاجم مخالفين بذلك تعاليم الدين الاسلامي الحنيف الذي يرى أنه لا فضل لعربي على أعجمي الا بالتقوى. ورغم ذلك لم يستنكف عن تبرير تلك السياسة. اذ يقول: من بين هفوات الحكومة الاموية اتخاذ العصبية وتصلبها في أمر الحاكمية العربية وحمل العرب على أعناق الأمم الداخلة في الاسلام، مع أن عذرهم في ذلك واضح تبرره سياسة الفتح والاستيلاء، وهو تطوير المفتوحين وفصلهم عن ماضيهم، وما فعلوا ذلك إلا بنية المحافظة على الاسلام في الصبغة القومية التي قام به في العالم.

وبعدما استعرض المؤلف الأحداث والثورات التي شهدتها الدولة الأموية قبيل سقوطها، تحسّر على وفاة يزيد بن الوليد الذي لم يبق في الحكم سوى خمسة أشهر وبضعة أيام، قائلاً: مات يزيد بن الوليد فكانت وفاته أفدح رزء على الدولة الأموية. فلو أفسح الله له في أيامه لأعاد الدولة الى أحسن ما كانت عليه بأعصر شبابها ولقطع عنها أسباب الخلاف والفتن والثورات فيدوم حكم الامويين الى ما شاء الله وينجزون برنامجهم السياسي والعسكري القاضي باختراق أوروبا وربط المواصلات بين الاندلس والقسطنطينية وصيرورة البحر المتوسط بحيرة إسلامية.

ولعلّ الثعالبي قد تنبّه الى ما يمكن أن يتّهم به من تحييز وابتعاد عن النزاهة العلمية والموضوعية التاريخية فقال: لسنا ندافع عن سياسة الأمويين، لكننا نريد انصافهم ونقول عنهم ما نعتقده صدقا، ولا أجمل من المؤرخ إذا كانت حليته الصدق والانصاف.

4 - كما تتجلى لنا من خلال مؤلفات الثعالبي التاريخية وبالخصوص تاريخ شمال افريقيا وسقوط الدولة الأموية الغايات التي كان يرمي الى بلوغها من كتابة التاريخ وهي تتمثل أولا وبالذات في إعادة كتابة التاريخ الاسلامي لتخليصه من الاخطاء الفادحة التي ارتكبها بعض المؤرخين الغربيين ثم استخلاص العبرة والموعظة من الأحداث التاريخية لربط الماضي بالحاضر.

من ذلك مثلا أنه تعرّض لأعمال التخريب التي قام به البربر إبّان الفتح الاسلامي بإذن من الكاهنة فقال: ذلك ما خربته الكاهنة لا العرب، كما أرجف به دجاجة المؤرخين الذين يريدون طمس معالم التاريخ لغاية عارية من الشرف. ولرد مفترياتهم سنتعرّض لذكر ما عمّره العرب بعد التخريب، كشفا للحقائق وانصافا للأجداد من التاريخ المصنوع.

كما أورد في كتابه «سقوط الدولة الاموية» بعض الخطب التي ألقاها الثائر الخارجي أبو حمزة ونقلها الطبري في كتابه تاريخ الأمم والملوك، وقد علّق عليها بقوله: رأينا من الواجب نقل خطب أبي حمزة الثائر ليقف أحرار عصرنا على رأي وأفكار أحرار الصدر الأول من الاسلام في الحرية والانظمة التي يطلبونها باسم الثورة حتى تكون نموذجا صالحا من

تاريخ فقه الفكر والانقلابات السياسية التي تفتتت عنها عقول المسلمين.

وعلق على الخطبة التي ألقاها يزيد بن الوليد لما تولى الخلافة بقوله:

خرج يزيد الى الجامع وألقى ما يسمّونه خطاب العرش ومنه يعرف القارئ ما بلغت اليه الشعوب الاسلامية والحكومة الاموية من الرقي والنظام الاجتماعي قبل أن تعرفها أوروبا نفسها.

إنّ ما يتبجحون بادعائه قد سبقناهم اليه بأكثر من اثني عشر قرنا.

والجدير بالملاحظة في هذا السياق أن الثعالبي كثيرا ما يستعمل في كتاباته التاريخية عبارات ومصطلحات لم تكن معهودة في العصر الذي يؤرخ له مثل القومية والديمقراطية والدستور والحكومة التيقراطية واضراب العمال وخطاب العرش الخ... مما يدلّ على أنه لم يستطع دائما الانفصال عن حاضره والتخلّص من مؤثرات العصر الذي يعيش فيه.

5 - وأخيرا فإن ما يمتاز به منهج الثعالبي في التاريخ هو عدم الاقتصار على سرد الوقائع والاحداث السياسية والعسكرية وذكر الاخبار المنقولة عن كتب التاريخ القديمة انما هو الحرص على البحث عن أسباب الحوادث وعيبيها. وقد تجلّى هذا الحرص في كتاب سقوط الدولة الاموية، حيث طرح المؤلف عدة تساؤلات واشكاليات تتعلق بهذا الموضوع، وقد برّر ذلك بقوله:

«ليس من العبر التاريخية أن يعرف الانسان سطحيّا أن

الدولة العباسية قامت بعد الدولة الأموية وانما العبرة أن يعلم ما تخلل بين سقوط هذه وقيام تلك من العوارض والاسباب.

وقد حاول بالخصوص التعرف على أسباب انحلال دولة آل مروان بوجه خاصّ وسقوط الانظمة السياسية في العالم بوجه عامّ، فاستعرض الاسباب التي أشار اليها المؤرخون حول هذا الموضوع ولكنه يقتنع بها وعلّق عليها بقوله:

توجد في العالم أمور شتى لا تقبل نظرا ولا تعليلا، إمّا لخفاء أسبابها أو لخضوعها لقاموس غير معلوم. وانكسار المروانيين من هذا القبيل.

نعم هنا حيرة العقل وارتباك الفكر، بحيث لا يسع الانسان الا أن يقول: هو القدر الذي عمي عن فهمه البشر ويكل علم ذلك الى الله يلهمه من يشاء من عباده.

نعم حكى في ذلك المؤرخون أسبابا كثيرة وهي في ذاتها غير مفهومة تحتاج الى الايضاح والتعليل.

ونحن نترك الحكم في هذه المسألة العويصة لمن سيأتي بعدنا من الباحثين فيما ترك لهم من المباحث المتعلقة بأسرار هذا الكون العجيب.

ولكنّ الثعالبي لم يقف عند هذا الحدّ بل اجتهد في تقديم بعض الاسباب التي تفسر في نظره سقوط الدولة الأموية:

- وأولها ما أصاب الدولة من وهن بسبب «انتزاع الثقة منها وزوال هيبتها من القلوب وجنوح الأمة الى الثورات.

فلو لم يمسس الأمويين الوهن لاستحال انتقال الدولة الى العباسيين بلغ ما بلغ من حكمة أبي سلمة أو نشاط جمعية النقباء أو بعد نظر أبي مسلم.

- أما السبب الثاني فهو على حد تعبيره «ثمرة جهاد عقلي عام نضج في دماغ الإسلام لمصارعة العدوّ القرني للأمم، ألا وهو الاستبداد».

- وأخيرا يتمثل السبب الثالث في الانقسامات السياسية التي فشت في الأمة ثم سرت الى الجنود «فأحدثت الفشل في الصفوف بدون نظر الى العواقب الوخيمة التي جرّت الى قلب الدولة وانحلال العصبيّة. وهنا يظهر تأثر الشيخ الثعالبي تأثراً واضحاً بنظرية ابن خلدون حول العصبيّة.

ولكنّ هذه الملاحظة لا تكفي لمشاطرة رأي من قال في جريدة «لسان الشعب» في سنة 1924 حول الشيخ عبد العزيز الثعالبي: «لو لم يسبقه ابن خلدون الى وضع علم الاجتماع والسياسة لكان هو ابن خلدون هذا الزمان»!

ونحن نفضّل الرأي المعلّل الذي أبداه شيخنا المنعم المبرور محمد الفاضل بن عاشور بخصوص كتاب سقوط الدولة الأموية عندما قال: «هي دراسة واسعة للأدوار الأخيرة للحكم الأموي، مع استقصاء عوامل السقوط وأسباب الثورة، واستخلاص القوانين العامة لسقوط نظم الحكم لعدم انسجامها مع التطلّع الشعبي، في تعبير جزيل فصيح، ووصف بليغ مسهب قد يعوزه الضبط وتدقيق المعنى».